مقدمة الناشر

عملت محاكم التفتيش فى كثير من الأراضى الأوروبية، خاصة إيطاليا وفرنسا وإسپانيا، ثم انتقلت إلى أمريكا الجنوبية، لحوالى سبعة أو ثمانية قرون، وأشعلت المحاكم حروبًا صليبية على الهراطقة داخل أوروپا، وفى أمريكا الجنوبية.

ولكن ما هى الهرطقة؟ أصل الكلمة باللغة اليونانية يعنى الاختيار، ومعناها الاصطلاحى فى الكنيسة الكاثوليكية هو عقيدة تختلف عن عقيدة الكنيسة. فالمعنى الحقيقى إذن هو اختيار مسيحى ما لعقيدة تخالف ما تقول به الكنيسة الكاثوليكية.

يجرنا هذا إلى عقيدة الكنيسة الكاثوليكية... حدد العقيدة الكاثوليكية ما يُسمون الآباء القدامى، والمجامع الكنسية عبر عدة قرون... وهذه المجامع راكمت بنود العقيدة، ولكنها لم تسلم من الخلافات، بل كثيرًا ما عارض مجمع ما قرارات المجمع الذى سبقه، وأوضح مثل على ذلك أريوس وإثناسيوس مع الإمبراطور قسطنطين، الذى مال للثانى أولًا، ثم مال للأول ثانيًا، وعاقب المرفوض فكره فى المرتين، وكان الخلاف على أن الابن (المسيح) مساوٍ للأب أم أقل منه؟ مخلوق منه أو أنهما من نفس الأصل؟ كذلك البابا ڤيجيلوس مع الإمبراطور چوستنيان، فقد غير البابا رأيه ثلاث مرات ـ بين نقيضين ـ فيما يتعلق بآراء نسطوريوس فى طبيعة المسيح، هل هى واحدة أم اثنتان: إنسانية (ناسوتية) وإلهية (لاهوتية)؟.

زاد من احتمال الانحراف عن الكنيسة والخلاف معها طبيعة اللاهوت الكاثوليكى، فقضية إله واحد بثلاثة أقانيم، وهل للمسيح طبيعة واحدة أم طبيعتان؟ وقضية الخطيئة الأصلية وآثارها، وتحول الخبز والنبيذ فى يد الكاهن إلى جسد المسيح ودمه، فيأكله المتناول ويشربه، كلها، وغيرها، قضايا خلافية عند العقول البسيطة.

كذلك زاد من اعتراض الناس على الكنيسة ما رأوه من سلطان الباباوات المطلق، وطريقة

عيش كثير منهم ومن رجال الكنيسة، فى ثراء وبذخ، مع ارتكاب مختلف أنواع الشرور... من رشوة لجنس لتدبير مؤامرات واغتيالات، وشن حروب وما إلى ذلك... ثم تقول الكنيسة للناس إن الباباوات معصومون، وأن لهم سلطان التحليل والتحريم... وغفران الذنوب ـ مما أسفر عن بيع صكوك الغفران ـ أو حرمان الأباطرة والملوك والأمراء، بل حرمان مدن ودول بأكملها...

وقد اعتمدت الكنيسة فى ذلك على نصوص من الإنجيل، مثل: كل ماتربطونه على الأرض يكون قد ربط فى السماء، وما تحلونه على الأرض يكون قد حُل فى السماء ـ متى ١٨: ١٨.

وأوَّل بعض الباباوات تلك الآية بأن من يستطيع فتح السماء وغلقها يستطيع أن يحكم الأرض، وعلى ذلك يجب أن يحكم البابا العالم كله ـ بذلك قال جريجورى السابع وغيره.

وجدير بالذكر أن آراء القس الكاثوليكى المصلح مارتن لوثر رأتها الكنيسة هرطقة... فالپروتستانتية التى يدين بها اليوم ربما ربع أو ثلث المسيحيين هرطقة فى نظر الكنيسة... ومن ناحيته، قال لوثر إن البابا عدو المسيح، وما زال البروتستانت المتشددون يقولون نفس القول، وربما يزيدون أن روما هى بابل العاهرة.

ولذلك اشتعلت الحروب الدينية فى أوروپا بين الكاثوليك والبروتستانت لعدة عقود...

كذلك فإن كنائس الشرق الأرثوذكسية ـ بما فيها الكنيسة المصرية ـ التى تقول بالطبيعة الواحدة للمسيح هى أيضًا مهرطقة فى نظر الكنيسة الكاثوليكية.

لما انتشرت الهرطقة فى أوروپا ـ التى لم تسدها المسيحية إلا فى أواخر الألفية الأولى، وبأشكال جد متنوعة ـ ظهرت محاكم التفتيش الكنسية خوفًا من القضاء على الكاثوليكية... وستقرأ أنه لولا محاكم التفتيش لاقتلعت الهرطقة الكنيسة الكاثوليكية من جذورها، خاصة وقد دانت نسب مرتفعة من المسيحيين بهرطقة أو أخرى، فعلى سبيل المثال انحرف ثلث فلورنسا أو أكثر عن عقيدة الكنيسة، وربما زادت النسبة عن ذلك أو قلت فى أنحاء أخرى من إيطاليا المفككة، خصوصًا فى الجنوب، وانحرف معظم جنوب فرنسا عنها... واقتصارنا على هذين المثلين لأننا نتكلم عن الهرطقة فى إيطاليا وفرنسا فقط فى هذين الكتابين.

بدأت محاكم التفتيش بمندوبين عن البابا، ثم توسعت وتوحشت حتى أصبح لها سلطة تنافس سلطان البابا والأباطرة والملوك.. وربما اصطدمت بها وانتصرت عليها أحيانًا، وأشعلت عدة محاكم حروبًا صليبية على المهرطقين، دعت لها الكنيسة، وقامت بها السلطات الزمنية عن

اقتناع أحيانًا، وتحت تهديد من الكنيسة أحيانًا أخرى، ولتحقيق مصالح أحيانًا ثالثة... وربما اختلط بعض من كل ذلك.. فمحاكم التفتيش والحروب الصليبية على المهرطقين فى جنوب فرنسا، أعادت الجنوب للكاثوليكية وألحقت جنوب فرنسا بشمالها.

وكما اعتمدت الكنيسة على تأويل نص إنجيلى، اعتمدت السلطة الزمنية على نص آخر لترفع عاليًا مفهوم حق الملوك الإلهى فى الحكم: على كل نفس أن تخضع للسلطات الحاكمة، فلا سلطة إلا من عند الله، والسلطات القائمة مرتبة من قبل الله، حتى أن من يقاوم السلطة يقاوم ترتيب الله ـ الرسالة إلى مؤمنى روما ١٣: ١ ـ ٢.

وقد ظلت فكرة حق الملوك الإلهى فى الحكم حية فى فرنسا وألمانيا ـ وغيرهما فى أوروبا ـ حتى نهاية القرن التاسع عشر.

تحت مثل هذا الاستبداد المزدوج ـ السلطة الروحية وتمثلها الكنيسة، والسلطة الزمنية ويمثلها الأباطرة والملوك ـ الذى يرتكن لتأويل نصين من الإنجيل، يُخولان حقًّا إلهيًّا لكل من السلطتين، لم يكن يتيسر فحص وتدقيق وتطوير عقلانى للمسيحية ـ حتى جاء عصر الإصلاح ومن بعده عصر التنوير ـ بل تيسر استخدام القوة، واستعانت السلطات بتأويل نص ثالث من الإنجيل: فقال السيد للعبد: أخرج إلى الطرقات والسياجات، وأجبر الناس على الدخول حتى يمتلئ بيتى ـ لوقا ١٤: ٢٣.

فعلى سبيل المثال، قال البابا إينوسنت الثالث: يجب حرق ـ بدون شفقة ـ كل من يحاول التأويل برأيه عن الله إذا خالف عقيدة الكنيسة.

وقال المحقق برنارد جوى: لا ينبغى مجادلة غير المؤمن، بل غمد السيف فى بطن الرجل لأقصى عمق ممكن...

وأمر البابا مارتن الخامس بتسوية القرية المهرطقة «Magnalta» بالأرض وذبح كل ساكنيها.

عمل فى محاكم التفتيش قسس ورهبان بجد واجتهاد، واتبع معظمهم طرق قاسية ومرعبة لانتزاع اعترافات المتهمين، حتى لو كانوا نساء مسنات، أو حتى على فراش الموت... أو شبابًا صغارًا إلى حد المراهقة.... لذلك قالوا إن بوسع محاكم التفتيش انتزاع اعتراف بالهرطقة من تلامذة المسيح، الحواريين أنفسهم.

اختلفت الأحكام... فمن البراءة... إلى دخول الأديرة... أو الحج سواء لبيت المقدس أو

غيره من الأماكن المقدسة فى أوروبا... أو السجن.. إلى الحرق على خشبة... وكان ذلك يسمى «عمل إيمانى».

وكان لذلك الحرق مراسم وطقوس، خاصة فى إسپانيا.... فيمر موكب مهيب... يشاهده المؤمنون، والذين ربما يصل عددهم عشرات الآلاف، وسجل بعض المؤرخين مئات الآلاف فى بعض الحالات... وتنتهى المراسم بحفل الحرق على الخشبة... وكان يقوم بهذا السلطات المدنية، أو الذراع المدنية للسلطة الروحية؛ لأنه ليس للسلطة الروحية إراقة دماء.

أصبح عمل المحققين منصبًا يُسعى إليه.... فوراءه سلطة عظيمة، كذلك يمكن منه ابتزاز ثروات أعظم.... هى أراضى المهرطق وثرواته... وأراضى من يساعد المهرطق وثرواته... وأراضى من لم يبلغ عن المهرطق وثرواته.... بل إن بعض المسيحيين اتهموا بمجرد مخالطة المهرطقين... وأحيانًا مجرد صحبتهم فى مركب أو ما شابه ذلك...

ولم يكن الموت حائلًا عن الاتهام بالهرطقة... فيمكن، وقد حدث عشرات إن لم يكن مئات المرات، نبش قبور المهرطقين، وإخراج جثثهم لمحاكمتها، ثم حرقها فى عمل إيمانى.

أيد وساند محاكم التفتيش عقاب باباوى بحرم شخص ـ سواء كان إنسانًا بسيطًا، أو «كونت» أو أميرًا، أو حتى ملك أو إمبراطور ـ مما يعنى إهدار دمه واستحلال ثرواته، بل يمكن لمن يريد استرقاقه... ويمنع التعامل معه، وبالطبع يُحرم من كل خدمات الكنيسة، وآخرها الدفن فى قبور المسيحيين.

كذلك من سلطة البابا أن يحرم مدينة بأكملها، أو حتى دولة بأكملها، مثل إنجلترا أو فرنسا، أو ممالك ودوقيات إيطاليا.... فيحق لمن يريد غزوها، وتتوقف كل الخدمات الكنسية... وقد حدث هذا مرارًا وتكرارًا فى تاريخ الكنيسة الكاثوليكية... واستمر حتى القرن السابع عشر، وربما بعده، واستمر فى أمريكا الجنوبية حتى نهاية القرن الثامن عشر وربما مطلع القرن التاسع عشر.

وقد بررت الكنيسة استرقاق السكان الأصليين فى أمريكا الجنوبية والاستيلاء على أراضيهم، وصدر مرسوم باباوى فى عام ١٤٩٣ يبرر إعلان الحرب على السكان الأصليين الذين يرفضون اعتناق المسيحية، وزعم القاضى «Encisco» فى عام ١٥٠٩:

للملك كل الحق لإرسال رجاله للاستيلاء على أراضى عبدة الأصنام؛ لأنه استحقها

بمرسوم باباوى، وإذا رفض الهنود، عليه قتلهم واسترقاقهم، تمامًا مثل ما استرق يشوع سكان كنعان.

تركز عمل محاكم التفتيش على المسيحيين المهرطقين، ولكن طال بعضها اليهود، وخاصة اليهود المتحولين للمسيحية (المارانو)، والمرتدين منهم، أو المحافظين على دينهم فى السر، وكذلك المسلمين، وكان ذلك بصفة خاصة بعد استرداد المسيحيين للأندلس المسلمة.

يروى بعض المؤرخين أعدادًا هائلة لمن حرقهم محقق واحد فى يوم واحد... مائة، أو أقل قليلًا أو أكثر قليلًا، بل ستقرأ عن محقق ـ أصله مهرطق ثم تاب ـ أهلك ١٠٠٠ مهرطق.. وكذلك جاوز الحصر من قتلتهم الحروب الصليبية على المهرطقين... ففى رواية عن الحرب الصليبية فى جنوب فرنسا، قتل الجيش الصليبى عشرين ألفًا من سكان مدينة بيزييه، وتصل بعض الروايات إلى ستين ألفًا... وأرسل قائد الجيش يبشر البابا بالقضاء على كل سكان المدينة، رجالًا ونساء وأطفالًا وشيوخًا... ولما قيل له إن بعض من قتلهم كاثوليكيون مخلصون، أجاب بأن الله يستطيع أن يفرز المخلص من المهرطق. وفى رواية أخرى أنه قال قبل غزو المدينة لجنوده: اقتلوهم كلهم، والله يعرف من هو كاثوليكى ومن هو كاثارى (أى مهرطق).

يقول ول ديورانت عن محاكم التفتيش فى قصة الحضارة: إنها أشنع الوصمات فى سجل البشرية كله، وبأنها تكشف عن وحشية لا نعرف لها نظيرًا عند أى وحش من الوحوش ـ جـ١٥، صفحة ١٠٦.

* * *